

المحاضرة رقم 10

الأنثروبولوجيا عند العرب في شمال إفريقيا

مقدمة

بعد هذا العرض المسهب لنشأة الأنثروبولوجيا وتطورها، وفروعها ومجالات دراستها، ألا يحقّ لنا أن نتساءل : أين هو المجتمع العربي من الدراسات الأنثروبولوجية، بل أين الأنثروبولوجيا العربية ذاتها، إذا كان ثمة أنثروبولوجيا عربية خاصة بطبيعة الأمة العربية وثقافتها التاريخية / الحضارية؟

قد تكون الإجابة عن هذا السؤال من الصعوبة بمكان، حيث لا توجد معطيات جاهزة وكاملة لهكذا إجابة، على الرغم من وجود محاولات لأنثروبولوجيا عربية، سواء في الماضي أو في الحاضر. وهذا ما سنحاول تبيانه والوصول من خلاله إلى تصوّر - إن أمكن - لأنثروبولوجيا عربية معاصرة .

إنّ كون الأنثروبولوجيا كعلم له خصوصيته وطرانقه، غربي المنشأ والتطور، فهذا لا يعني تجاهل أو إنكار، أنّ العرب كانوا أسبق من الغرب (الأوروبيين) (في دراسة الثقافات الأخرى، وصفاً ومقارنة، وفي وضع المبادئ والأسس المنهجية للبحث والدراسة في العلوم الاجتماعية والطبيعية).

وإذا ما عدنا إلى الفترة الممتدة من منتصف القرن الثامن الميلادي إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، نجد أنّ العرب كانوا - على مدى أربعة قرون ونصف القرن " عابرة الشرق " في علوم الفلك والطب والاجتماع والفلسفة وغيرها، بينما كانت اللغة العربية، هي اللغة الأساسية في العلوم الإنسانية ولكنّ هذه العلوم كلّها ذهبت إلى الغرب بعد سقوط الدولة العربية العباسية وتتالي الغزوات الاحتلالية والاستعمارية على الوطن العربي، والتي أسهمت في إضعافه اجتماعياً وثقافياً وعلمياً، بينما راح الغرب يستفيد من علوم العرب ويطوّرها، منذ فجر نهضته وحتى يومنا هذا.

أولاً-واقع الأنثروبولوجيا العربية :

يقول المؤرخ العربي / جمال الدين الشيال / : " انقلب الأوروبيون إلى ديارهم بعدما منوا بالهزيمة في الحروب الصليبية، وقد بهرتهم أنوار الحضارة العربية / الإسلامية، وأخذوا مفاتيح تلك الحضارة، فتفرغوا لها ... يقتبسون من لآئها وينقلون آثارها، ويدرسون توليفاتها. وقد ساعدتهم عوامل أخرى، جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية، على أن يسيروا بالحضارة في طورها الجديد، على طريقة جديدة تعتمد أكثر ما تعتمد، على التفكير الحرّ أولاً وعلى الملاحظة والتجربة والاستقراء ثانياً. فمهد هذا كله لهم السبيل إلى كشف علمية جديدة شكّلت الطلائع لحضارة القرنين، التاسع عشر والعشرين."

ويتابع / الشيال / : كان الأوروبيون يفعلون هذا كله، في حين كان الشرق - بما فيه العالم العربي - قد اتخذ لنفسه، أو اتخذ له القدر، أسلوباً آخر من الحياة، يختلف كل الاختلاف عن هذا الأسلوب الذي اصطنعته أوروبا لنفسها، أو اصطنعه القدر لها."

وعلى الرغم من اعتراف بعض مفكري أوروبا بتأثير التراث الحضاري العربي على الحضارة الغربية الحديثة، فقد ساد اتجاه ناكر ومنتكر لهذه الحقيقة التاريخية، من خلال السعي نحو طمسها، أو التقليل من شأنها. وقد دعم هذا الاتجاه، حركة الاستعمار الأوروبي للعالمين : العربي والإسلامي، مؤكداً عجز العرب والمسلمين عن الابتكار والإبداع، والإسهام في ركب الحضارة الإنسانية، الأمر الذي يجعل من " التغريب " أمراً ضرورياً لمواكبة تطورات العصر الحديث.

ولهذا، فمن الضروري العمل على فحص التراث العربي / الإسلامي، بتنوعه وجزارته، ودراسته دراسة متأنية ومتعمقة، ولا سيما تلك الأعمال ذات الصلة المباشرة بالأنثروبولوجيا، من أمثال : مؤلفات أخوان الصفا، وكتاب " الحيوان " للجاحظ، وكتابات / أحمد ابن مسكويه / الخاصة بأرائه عن النشوء وتحول الأحياء بعضها من بعض، وغيرها كثير.

فقد تؤدي هذه الدراسات إلى إعادة تاريخ الأنثروبولوجيا من جديد، أو على الأقل، إعادة أصولها المعرفية والمنهجية، بحيث لا ترد جميعها إلى عصر النهضة (التنوير) في أوروبا فحسب، بل قد يوجد في هذا التراث الحضاري العربي، الكثير من المفهومات والنظريات عن الجنس البشري والحضارة الإنسانية، وأوجه الحياة اليومية ومشكلاتها، مما لا يزال يشغل بال الباحثين الأنثروبولوجيين المعاصرين.

وعلى الرغم من غنى العلوم في هذا التراث العربي، فإنّ علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لم يلقَ الاهتمام في الدوائر العلمية والبحثية العربية، كما هي الحال في المؤسسات العلمية الغربية وباحثيها، سواء في البحوث الميدانية / التطبيقية، أو في الدراسات الأكاديمية، كالدراسات الفلسفية والنفسية والتربوية..

وثمة بعض الباحثين (الأكاديميين) العرب يشيرون إلى أنّ الأنثروبولوجيا، دخلت إلى العالم العربي، في الثلاثينات من القرن العشرين تحت اسم " علم الاجتماع المقارن" وذلك على أيدي عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين، مثل : (إيفانز بريتشارد - هو كارت - وبريستافي) ممّن تولّوا التدريس في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن). ثم جاء بعدهم في الأربعينات، عميد الأنثروبولوجيين في ذلك الحين، الأستاذ / رادكليف براون / الذي قام بتدريس الأنثروبولوجيا في جامعة الإسكندرية، تحت اسم (علم الاجتماع المقارن) أيضاً، وذلك لعدم احتواء برامج التدريس الجامعي - في ذلك الحين - على مادة الأنثروبولوجيا ،

إنّ التوقّف قليلاً عند التصويرات التي تمّ تشييدها مثلاً، عن الثقافة والمجتمع العربي في الفكر الأنثروبولوجي، ولا سيّما تلك التصويرات الناتجة عن علاقة الأنثروبولوجيا بالمجتمعات العربية، لهو أمر على غاية من الأهمية.

ولذلك، فإذا أردنا القيام بمحاولة تأريخ لعلاقة الفكر الأنثروبولوجي الغربي، بالمجتمع والثقافة في العالم العربي، فإنّ إيفانز بريتشارد وإرنست غيلنر، سيتصدّران ليس فقط قائمة عدد من الأنثروبولوجيين الذين تعاملوا مع ثقافات ومجتمعات العالم العربي والإسلامي، وإنّما أيضاً لأنّ تجربة الاثنين معاً تعبّر عن أحد أشكال تجليات هذه العلاقة، في جانبها الأوروبي على الأقل.

فقد حاول كلّ من بريتشارد و غيلنر، ومن واقع انتمائهما للثقافة الأوروبية المعاصرة، أي باعتبارهما مثقفين قبل أن يكونا أكاديميين، فهم هذا الواقع الاجتماعي والثقافي ذي الخاصية العربية الإسلامية، هذا الواقع الذي يقع في مقابل الغرب الثقافي والاجتماعي. وكان الهاجس الأهم الذي يشكّل صلب اهتمام غيلنر في هذا الجانب - وما زال -، ليس التفاصيل الأنثوغرافية المميزة للثقافة العربية والمجتمع العربي، وإنّما هي البحث في الآليات والقوانين المنطقية، التي يعمل وفقها النظام الاجتماعي في هذه البقعة من العالم. يتيم،

لقد قام / إرنست غيلنر / الأنثروبولوجي والفيلسوف، وعبر دراساته الإثنولوجية أولاً والأنثروبولوجية ثانياً ، بتحليل جانبيين على غاية من الأهمية، يكوّنان من الثوابت الرئيسة البارزة في البنى الاجتماعية العربية ، ألا وهما: الإسلام والقبليّة. فقد قادته محاولته الاستقرائية إلى عمله الحقلي

(الميداني) الأنثروبولوجي في جبال الأطلس في الغرب العربي، بقصد اختبار مفهوم " الانقسامية " مثال :الأسرة / العشيرة، البداوة / الحضر، الشعبي / الرسمي ، وغيرها من الثنائيات. وذلك باعتبار أنّ الانقسامية هي السنة البنيوية البارزة للنظم القرابية والسياسية في المجتمعات العربية القبلية .

ومثلما ذهب المعلّم / إيفانز بريشارد / إلى البحث في العوامل المحليّة المساعدة في إعادة التوازن في الانقسامية القبلية، أي فيما رآه المعلّم من دور للإسلام باعتباره نظاماً أيديولوجياً، تجسّد في التنظيم الاجتماعي لأبناء برقة (في ليبيا) وفي الحركة الصوفية السنوسية، هكذا أيضاً سعى / غيلنر / . وهذا ما أوضحه في كتابه " أولياء الأطلس " حين حاول إيضاح كيف كان التصوّف الإسلامي، يؤدّي عبر نظام الزوايا والأولياء، أدواراً تعتبر مفصلية في إعادة التوازن إلى بنى اجتماعية، يدفع بها نظامها الإيكولوجي البيئي نحو الانقسام المتتالي.

هذا من جهة، أمّا من الجهة الأخرى، فقد عزا معظم الباحثين العرب عدم الترحيب بالأنثروبولوجيا وانتشارها في العالم العربي، إلى سببين أساسيين :

أولهما : عدم تقبّل فكرة التطوّر الحيوي عند الإنسان، بالنظر لتعارضها مع الفكر الديني وتفسيراته التي تؤكّد أنّ الإنسان مخلوق من عمل الله، وليس نتاج حلقة تطوّر ذات أصل حيواني .ولكن ثمة بعض المفكرين العرب من دعا إلى التوفيق بين الفكرتين، والأخذ منهما ما يفيد العلم.

فبينما يقول الباحث الجيولوجي الدكتور / عبد الله نصيف / في كتاب " العلوم الاجتماعية والطبيعيّة " : ليس ثمة تعارض – مطلقاً- بين الإيمان ومعرفة الإنسان عن الكون، واستخدامه هذه المعرفة للخير .. نجد أنّ المفكّر / زكي نجيب محمود / يقول في كتابه " هذا العصر وثقافته " : ليست الشطارة في تخريج المعاني التي تجعلنا نتصوّر أنّ ما جاء به الدين، هو نفسه ما يجيء به العلم في عصرنا .. وإنّما المهارة كلّ المهارة، هي في أن تبصرني بالطريق الذي أعرف منه كيف آخذ من الدين حافزاً، يحرك الإرادة إلى (صنع) علم جديد أقدمه لنفسه وللإنسانية جمعاء .

وثانيهما : ارتباط نشأة الأنثروبولوجيا وبداياتها التاريخية بالاستعمار، حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات البدائية والمتخلّفة، بهدف معرفة بنيتها التركيبية وطبيعتها الثقافية، ممّا يسهّل استعمارها، في الوقت الذي كان فيه المجتمع العربي يعاني من الاحتلال والاستعمار، ويسعى للتحرّر والتقدّم .

فكما ارتبطت الجغرافيا مثلاً، بمشاريع علمية كانت تهدف إلى تحقيق كشوفات جديدة تتعلق بتحديد طبيعة الكرة الأرضية، أي التخوم اليابسة منها وأقاليمها وبيئاتها والجغرافية، وكذلك توزيع البحار والمحيطات، وكذلك ارتبطت الأنثروبولوجيا واهتماماتها (البيولوجية والثقافية والاجتماعية) بمشاريع استكمال معارفها حول الإنسان، وبيئاته الاجتماعية والثقافية، أي بتلك المشاريع الأنثروبولوجية التي بدأت في الغرب، والتي آن الأوان لاستكمالها خارج أوروبا. وقد أتت ظروف الاستعمار في القرن التاسع عشر، لتمهّد الطريق لتلك المشاريع العلمية، وبذلك ارتبط تاريخ الفكر الجغرافي والأنثروبولوجي بالخبرة الاستعمارية، وبأقاليم ومجتمعات وثقافات غير غربية). يتيّم،

وكان أن أدّت هذه العقلية الاختزالية والروح المتحاملة، إلى سيادة ميل هائل نحو تسييس المعارف والعلوم، وكذلك المؤسسات والعلاقات الناتجة عنها. وكان من أبرز ضحايا تلك العلوم : الجغرافيا والأنثروبولوجيا. وإذا كانت الجغرافيا قد سلمت بجلدها، لأسباب تعود مثلاً إلى ترسخ هذا العلم في الأكاديميات العربية، منذ الأربعينات من القرن العشرين، وإلى إسهام العرب المسلمين، البارز في هذا العلم منذ القدم، الأمر الذي جعل العرب المعاصرين أكثر ألفة معه، فإنّ الأنثروبولوجيا لم تحظْ بهذا القبول، حيث كان نصيب الأنثروبولوجيين العرب الأوائل، أقلّ بكثير - إن لم يكن معدوماً- عند مجاراتهم بالأوروبيين.

وهكذا تمّ التعاطي مع أي اهتمام أوروبي أو غربي، بالمجتمعات العربية أو الإسلامية وثقافتها، على أنه يقع في دائرة الأطماع الاستعمارية أو التآمر على العرب والإسلام. وأصبح كلّ إنسان غربي (بيدي شيئاً من الاهتمام بهذه الموضوعات) موضع شبهة وريبة في العالم العربي.

وعلى الرغم من اتساع الدراسات الأنثروبولوجية لتشمل المجتمعات البشرية المختلفة، سواء في تكوينها أو في درجة تطوّرها، فما زالت ثمة رواسب تعوّق اعتمادها كعلم يبحث في مشكلات المجتمع العربي وإيجاد الحلول المناسبة لها، ولا سيّما القضايا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.